الرؤية الفلسفية لسلطة الزمن في شعر المعرّي
(قراءة تأويلية)

م. سالم عبد النبي جابر العقابي

خلاصة البحث:

للزمن فعل ,كما انّ له سلطةً , تستطيع تغيّر معالم العالم الموضوعي , الأمر الذي جعل الذات تشعر انّها امام ذلك المارد الذي لا احد يستطيع منازلته او الانتصار عليه .من هنا فانّ هذا البحث يُظهر سلطة الزمن وسطوته كما تعيها ذاتٌ فلسفية مبدعة شعريا واعني بها ذات ابي العلاء المعري ,لذلك توزّعت قدرة الزمن عبر تمظهرها الزماني في شعر المعري الى فعلين :فعل زماني يميل الى العبث واللهو فهو اشبه بالوليد الذي يعبث في التراب ويحطّمه غير مبالٍ بما يقع تحت سلطته. وتتعدى ممارسة سلطة الزمن تلك الى حد السفه في تحطيم الوجود الانساني فيشبّه نهاية الانسان الذي يقع تحت هذا الفعل الزماني بانّه عبارة عن شظايا زجاج تحطمت, فمن الصعب اعادة سبْكها على حدّ: تعبيره.

اما النوع الثاني من الفعل الزماني :فهي الممارسة الايجابية لتلك السلطة حينما يلجأ الى تثبيت افعال الانسان الكبرى ,وخصوصا تلك الافعال التي يقدّمها الانسان السامي ؛لتتخذ من حركة الزمن دورة متجددة ليس باستطاعة سلطة الزمن محوها ,اذ ان هذا النوع من الافعال يختزن ديمومته وخلوده من ذات مفعمة بالخير والجمال ,وهو ما جعلها تحتل وجودا في صميم الحركة الزمنية.

ان هذه الرؤية الفلسفية لسلطة الزمن لم تظهر في شعر المعري عبر قراءة مباشرة مع النّص ,بل جاءت من خلال قراءة تأويلية معمّقة لنّصه الشعري وهو ملخص ما وقفت عليه هذه الدراسة.

المقدمة:

يعد الزمن عنصرا حيويا في الوجود، فما من حدث إلا ويؤطّر بزمن سواء كان الزمن مطلقا أم نسبيا, فأنه يشكل في النهاية متلازمة مع الذات الواعية ومع ثنائيته (المكان) وجميعهم يشكلون مفهوم الوجود . لقد كان الزمن هاجسا لدى الفلاسفة منذ القدم فوقف عنده الفلاسفة اليونانيون أمثال أنكساغوراس و هيروقليطس وسقراط, ثم فلاطون وأرسطو الذي عدّه مقولةً لا غنى عنها في فهم الوجود, فأدخله في منطقة الصوري وراح يفهم

الكليات الخمسة في ضوء عنصر الزمن . ثم تطور وعي الأنسان عن الزمن, فكان من أهم الموضوعات الفلسفية والأدبية في القرنين الماضيين حتى قيل أنّ الفيلسوف لا يقال له فيلسوفا إلا حينما يحدد موقفه من الزمن ورؤيته ازاء فعله؛ لذلك كان من أعقد الموضوعات الفلسفية وأعمقها في الفكر الأوربي فديكارت أبدع في تناوله وجعله أسّا وجوهرا في فهم الوجود أما الفيلسوف كانت فجعله متلازمة مع الحدس ومع المفاهيم المجردة في حين كان لبرجسون رؤيته الفلسفية لمفهوم الزمن فرأى انّ له حقيقة وجدانية (intuition) أي حدسا وجدانيا متمثلا بالذات الوجدانية للإنسان . أما الفلاسفة الماركسيون فشكّل مفهوم الزمن عندهم نقطة جوهرية في ثالوث الصيرورة والتناقض الماركسي , بينما كان غامضا في عالم الشعر, ؛لذا تحول الى بُعد شعوري بنائي كامن في لغته المجازية ,فهو ذو فعل وذو اثر وله سلطة في وعي الشعراء ,وخطابهم الشعري, فبرز على شكل تموجات شعورية تارة ومفاهيم غامضة تارة اخرى . من هنا يعد الشاعر المعري اكثر الشعراء العرب شعورا بهاجس الزمن وخصوصا في خطابه الشعري لذلك نجد شعره حافلا بالاغتراب الزمني الأمر الذي ولّد في النهاية رؤية فلسفية كشفت عن مفهوم عميق جدا عن فعل الزمن وسطوته وسلطته . فهو مارد يغيّر ما يحيط به من الذات والموضوع الوجودي وهو عبارة:عن سرٍّ غامض يتعذر الإمساك به او ,اعطاؤه صورة واضحة . انّ هذا البحث هو محاولة جادة لسبر أغوار سلطة الزمن في شعر المعري عبر قراءة تأويلية لنّصه الشعري .

المدخل:(مفهوم الزمن)

ينقسم الزمن فلسفياً الى زمن موضوعي [فيزيائي], وهو الزمن الذي تسير بموجبه قوانين الكون الطبيعية ونواميسه، والنوع الثاني: الزمن الذاتي ويسمى بالزمن النسبي، ويُصطلح عليه في الغالب بالزمنية. إذ يُفهم من منظور الإنسان سواء كان للإنتساب الى المكان [الزمكاني] ام الانتساب الى الذات أي [الوعي] والأخير: يعدُّ مفهوماً للزمن الذاتي مقابل الزمن الموضوعي. وقد لقيَ رواجاً عند المذهب الظواهري[1].

بيدَ أنّ الفلسفة الحديثة طوّرت رؤيتها ومفهومها للزمن وحددتْ له مفاهيم في ضوء حقيقة الوعي الإنساني واحساسه بهذه الخاصية الكونية المسماة بالزمن إذْ استبعدت تلك الاتجاهات قدرةَ الانسان على تصوّر الزمن على وفق عملية موضوعية مستقلة عن الذات او عن الموضوع اي العالم المستقل, وعدّت الأمر معادلاً ورديفاً للحقيقة القائمة على الوجود الانساني أي الوعي الذاتي: وهو الرأي الشهير الذي ذهب إليه الفيلسوف [أوغستن] وأيدّه الفيلسوف هوسرل.

أمّا برجسون فقد حدد مفهوماً للزمن قائماً على المعادلة بين الوجود والزمن او المحايثة, وانطلق من خصوصية الزمن في لحظة المعايشة فعدّه جوهر الوعي، قبالة الفضاء المكاني والزماني المستل من تصوّر المكان.

واعتبره الفيلسوف [كانت] حدساً يختزل التجارب الانسانية إذْ يمرُّ بالمرحلة الأولى المسماة بالزمن الباطني اي الحدس الزمني المحدد, الذي يختزل الأحداث الباطنية. ثم المعنى الثاني: الزمن الذي يؤطر الاشياء[٢]. وكما كان للزمن علاقة جوهرية بالكون والانسان والحياة، فإنّ له انماطاً من العلاقات بأفعال الانسان الإبداعية، اي تلك الأفعال والممارسات التي يسعى فيها الى اعادة تشكيل مظاهر الوجود بشتى مستوياتها بغية تأسيس رؤية لإكتناه ما هو عميق وجوهري لهذه الممارسات الفوقية للفعل البشري، المتمثلة في الغالب في النشاط الفني للإنسان. فمثلاً – بين الزمن والشعر علاقة تساوق في الحركة وتوازي في رسم الاحداث على مستوى البناء الشعري، فتجد الفعل الجمالي الشعري لا يمكنه أن ينفكَّ عن عامل الزمن، مادام الشعرُ يسعى الى تأسيس عوالم أو استكناه عوالم غائبة عن الوعي العام، فإنها بالضرورة محكومة بالإطار الزمني.

إنّ متاهات الزمن الكونية الكبرى يرسمها الشاعر بريشته الإبداعية فيجعل من زواياه المظلمة ومضاتٍ ترصدها رؤيته الإبداعية. فتراه، ينتج ذوقاً فوق الذوق وإحساساً بالجمال فوق الإحساس ويُنشئ معرفة ((إبداعية تفكك الأشياء ثم تعيد تشكيلها وتستحضر التراث لا لتستوحي منه فقط, بل لتؤوله، وتخلق من أصواته المتعددة فاعلية ديناميكية تسهم حقاً في بلوغ أقصى درجات الرؤيا الشعرية))[٣]. وإذا كان ثمة أيقاع زمني يتحكّم بالفعل

الشعري وأفعاله التفصيلية فإنّ له سطوة على الذات المنتجة، تحدد المسافات بين الوعي الذاتي وبين لحظات التموّج في صعوده ونزوله اي سلّم التوتر وهي بمجملها تمثل سلطة الزمن المتفاعلة في الذات المنتجة على مستوى (القوة) قبل أن تصبح فعلاً نصيّاً ملموساً.

أو على مستوى الشعور المتّصل بالحيّز المكاني [جغرافية المكان] وهو في كلتا الحالتين يعكس [اغتراباً] زمنياً في مناطق وعي الشاعر الداخلية، أيْ التأثر والاستجابة بسلطة الزمن. فحينما يستشعر المبدع، أنّ فكرةً ما، لن تجد لها هويّة في القبول يلجأ الى محاولة تأطيرها بهوية أخرى وقابلية زمنية مستوحاة من الأفق المستقبلي الأمر الذي يجعل المتلقي أمام اغتراب واضح للفكرة، فالأمر لم يعدُّ فكرة لم تلق القبول، بل ثمة نزوع زمني بدأت الفكرة تبحث عنه لكي تجد استجابة على المستوى المكاني.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، فإنّ الشاعر يحدد وجوده في ضوء التفاعل المكاني والزماني الذي يعبر عن نفسه عبر الاتصال بالكيان الاجتماعي اي نمط من أنماط التفاعل العميقة او عبر الإنفصال عن المكان (الحقيقي) او الانفصال الزماني الآني والبحث عن إنتقالة زمانية الى هويّة التراث او الى هوية الأفق المستقبلي.

من هنا نجد المعري عاش اضطراباً واضحاً في لحظات الاتصال والانفصال فتشكّلت رؤيته الفلسفية للزمن عبر شعور عميق بالزمان والمكان، فتأرجحت احاسيسه بين الغربة القائمة على الإحساس البصري بالمحيط بوصفه شاعراً أعمى وبين الاغتراب عن مضامين الفعل الاجتماعي الشكلي والسطحي الساذج في- أغلبها. لذلك لم يكن اغتراباً زمنيا شعورياً عابراً بقدر ما كان رؤية فلسفية اتجاه فعل (الزمن) على الانسان, وعلى الكون والحياة.

رؤيته الفلسفية للفضاء الزماني:

إنّ الذي يقرأ شعر المعري قراءة تأويلية تنطلق من رؤيته العميقة لثلاثية الإنسان والكون والحياة، سيجد موقفه من (الزمن) الذي يحمل مفهوماً للفعل الزماني، فهو في الوقت الذي يراه يهدد العالم المادي بالفناء والزوال يستشعر قصور فهمه اتجاه هذا المارد الوجودي، فتراه يبحث عن هويته وعن أثره في افعال البشر ويحاول ان يحلق في فضاء السرّ الغامض له[٤].

((إن الشاعر يبدع ارتساماته الغنائية حول الكون ويجسّد ذلك في اشكال فنية متميزة تفاجئ القارئ بوصفها مواطن الجمال. ولكن الشاعر المتوغل في متاهة الزمن، المستشعر وجدانه بلهيب السؤال الشاك، المنقاد لأسئلة الوجود الحارقة، يتجاوز هذا المدى الأدنى الى المدى الأقصى))[٥]. المدى الذي يجعل من الزمن محوراً لتساؤلاته الكبرى, فتراه يسبح في فضاء الزمن متأمّلاً في سلطته في تغيير جميع ما يصله وعي الشاعر.

نـــــــــزول كمـــــــــا زال آباؤنـــــــــا

ويبقـــــــى الزمـــــــان علـــــــى مـــــــا تـــــــرى

نهـــــــارٌ يمـــــــرّ وليـــــــلٌ يكـــــــرّ

ونجـــــــم يغـــــــور ونجـــــــمٌ يُـــــــرى[٦]

إنّ وعي الشاعر في هذين البيتين ينطوي على دلالتين – الأولى: الفعل الذي يلزم الثبات وعدم التغيير إذْ يمتلك هذا الفعل سلطةً، حاكمة على كلِّ مظاهر الوجود تلك هي سلطة الزمن، والدلالة الثانية: إحالته الى المظاهر المتغيرة التي تخضع الى سلطة الزمن عبر تأكده الواضح على ذاته الخاضعة لتلك السلطة بدلالة (نزول كما زال آباؤنا)، وهو في الوقت ذاته، يؤكد الفضاء المفتوح للزمان (ويبقى الزمان) بما يرسّم سلطته في البقاء والثبات الذاتي. إنّ التغيير المستمر لمظاهر الوجود بحدِّ ذاتها يثير تساؤلات كونية عن سرّ هذه السلطة ومدياتها اللامتناهية؛ فالبيت الثاني يُعززّ هذه التساؤلات عبر دلالة (واو العطف) من تعداد مظاهر الوجود المتغيرة، وهو تساؤلٌ يرسمه المسكوت عنه:

نهـــــــارٌ يمـــــــرّ وليـــــــلٌ يكـــــــرّ

ونجـــــــم يغـــــــور ونجـــــــمٌ يُـــــــرى[٧]

فالبيت استنطاق واضح للمغزى الذي سيبلغه المتلقي من هذا التكرار بدلالة (ثم ماذا)، إنّه استشعار واضح لأفق الزمن المفتوح وفضائه وسلطته، والمعري هنا يرسمُ بعدين للزمان ((زمان سرمدي والآخر زماننا؛ اي عمرنا وعمر النجوم والكواكب والنهار والليل وكلُّ مظاهر الطبيعة، هذا الزمان الأخير يبدأ وينتهي في حركة دائرة مستمرة هو الآخر، في داخل الزمان السرمدي الأول))[٨].

إنّ هذا التداخل لسلطة الزمان, وضع الشاعر في حيرة واضحة من تحديد هويّة تلك السلطة وفعلها، فتراه في أكثر المواطن يشخص الزمان بالقوة العابثة وإنها عبارة عن وَهْمٍ وباطلٍ وشبحٍ (يلهو ويعبث).

نهـــــارٌ وليـــــلٌ عَوْقبـــــاً أنـــــا فيهمـــــا

كـــــــأنّي بخيطـــــــي باطـــــــلٍ أتشـــــــبّثُ

أظـــــــنُّ زمـــــــاني كونـــــــه وفســـــــاده

وليـــــــداً بتـــــــرب الأرض يلهـــــــو ويعبـــــــثُ[٩]

فتعاقب الليل والنهار في هذين البيتين تخطّى الظاهرة الفلكية –كما يعيها– الوعي الاعتيادي الى ظاهرة ذات سلطة وذات فعل كوني، يتعذر الإمساك بخيوطه، فهو لا

يتشخص بحقيقةٍ ولا وهمٍ.إنّ الشاعر المعري يرسم عبرها صورة متناقضة عن مفهوم الزمان في البيت الثاني، فكينونته وفساده واضمحلاله تعدّ بحد ذاتها سلطة ذات فعل كوني يمارس شتى أنواع التسلط واللهو والعبث إذا كان صدر البيت تضمّن حدود الزمان التي يستشعرها الشاعر، فإنّه بالمقابل يرصد مدى الحرية التي يتمتع بها الزمان الى الدرجة التي يشبّهه (بالوليد) العابث واللاهي. ولاشك أن دلالة الوليد بما توحيه من غياب للوعي المنظم، فإنها إشارة لا تخلو من اسقاطات الفوضى المجتمعية التي يخضع الشاعر تحت سلطتها، الأمر الذي جعله اشبه بذرات التراب التي لا قيمة لها الا في لحظة اللهو والعبث التي يمارسها الزمان، وهو مغزى واضح لسلطته وفعله العميق على ذات الشاعر.

لقد كان لسلطة الزمان وتمظهراتها المتعددة في شعر المعري هيمنة واضحة على وعيه، إذْ تظهر عملية الإحصاء لكلمة الزمان وما يدور في حقلها ،عن مدى أثر سلطة الزمان وفعلها على ذات المعري ووعيه, وهي بمجملها تكشف عن عمق حالة الاغتراب التي يعيشها الشاعر وتشكّل بذاتها دلالة مركزية عن رؤيته الفلسفية لهذا السرّ الوجودي الذي يتعذّر الوصول الى حقيقته. والمعري حينما يحاول رصد طبيعة هذه السلطة وأثرها في أفعال الانسان يرسم دائرتين لأفعال الانسان، الأولى أفعال تنعكس في وعي الشاعر بصورتها العبثية وتصبح أشبه بأفعال السفهاء وهي أفعال تبدو غير واعية إذْ لم تأخذ أثر سلطة الزمان بالحسبان وتخضع لفعلها المؤثر.

والثانية: أفعال تنسجم مع هذه السلطة وأثرها ويمارسها الإنسان عبر عملية متصلة بمصيره الذي تلعب به سلطة الزمان الى درجة (التحطيم).

ضـــحكنا وكـــان الضـــحك منـــا ســـفاهةً

وحـــــقٌ لســـــكان البســـــيطة أن يبكـــــوا

يُحطّمنـــــا ريـــــبُ الزمـــــان كأننـــــا

زجـــــاجٌ ولكـــــنْ لا يُعـــــادُ لـــــه سَـــــبْكُ[١٠]

فالبيت الأول يرسمُ لنا ثنائية الضحك والبكاء، وهي ثنائية متصلة بسلطة الزمان، إذْ أن الضحك وعبر متلازمته الصوتية, والبكاء وعبر متلازمته الصوتية يمثلان صورة سمعية انعكست في قنوات الشاعر الأعمى وراح يربطها بفلسفة الزمن ويعزّز من خلالها رؤيته الفلسفية لتلك السلطة القوية المتمثلة بتمظهره الزماني، فالضحك ارتبط (بالسفاهة) وهي صورة عبثية لفعل الانسان، وهي خارج دائرة التأمل بما يفعله الزمان بالإنسان, والبكاء وهو الصورة الإيجابية المستشعرة بهذه السلطة. إنّ الشاعر وفي عملية واعية يقرر المصير الذي ينتهي اليه الإنسان وهو يخضع لتلك السلطة التي قد تمارس عملية التحطيم للوجود المادي للإنسان، إن أروع مغزى يحيل اليه البيت الثاني هو عملية التحطيم كفعل صادر من قوى خفية وبين صورة الزجاج المحطّم الذي يتعذّر إعادة انتاج وجوده ثانية, وعودته الى الحياة. لاحظ قدرة الشاعر في خلق تداخل بين الصورتين، صورة (الفعل الزماني) وسلطته المعنوية، وصورة (تحطيم الزجاج) بوصفها صورة حسية بصرية قد تبدو غائبة بكلِّ تفاصيلها عن الشاعر الأعمى إلاّ الصوت الذي يظهره الزجاج في اثناء تحطمه او في لحظة الألم التي تحدثها شظاياه عند ملامستها.لقد جمع الشاعر بين مستويين من عناصر الصورة السابقة، مستوى قائم على العملية العقلية والمعنوية لفعل الزمان وسلطته وبين عناصر مادية تمثلت في تشبيه الانسان بذرات الزجاج،

وهي صورة حسية اذا جُمعت عناصرُها المادية، تنتج صورة تمثيلية تؤكد دلالة مركزية لا مناص من وضوحها، تتلخص بفاعلية الزمان وسلطته.فالصورة الشعرية –هنا– ((مطوّعة برؤية مدوية للزمن لا ترى في الشيء مركباته بقدر ما ترى فيه الشيء نفسه، وهي ثمّة أقدر على مداخلة الاشياء والنفاذ الى ما تنطوي عليه من أسرار ودقائق))[١١].

إنّ عملية الجمع بين الحالتين في الصورة السابقة, تبرز اثر السلطة الزمانية عبر التداخل بين عناصرها.

نافذة الدهر وفلسفته:

إنّ الذي يتأمل موقف المعري من الزمن في شعره، سيجدهُ فضاءً من الألغاز وموضعاً للتساؤل تارةً وللخلاص تارةً أخرى. مادام الزمن يشكل مفهوماً غامضاً ،في صورته الموضوعية فهو ليس شيئاً موجوداً لذاته اومحايثا للأشياء كما لو كان وجوده ضرورة موضوعية، وليست الاشياء مشروطة في وجودها بالزمن، إنما الزمن هو الشكل الحدسي (intuition) الباطني السابق للأشياء والمستقل عنها، وهو الذي ينظم وعينا الباطني[١٢]. وتمثل موضوعة الدهر رؤية فلسفية يتجلى فيها ارتباط الذات بهذا اللغز الوجودي، فكما رأينا سلطة الزمن في تغير عالم المادة الذي يخضع لوعي الشاعر، فإنه له نافذة أخرى تتمثل في الإنتقال من عالم الى عالم آخر من حالة شعورية تنتابها الفوضى الى فضاء آخر من الخلاص (سواء كان الموت) بهويته الصريحة أو خلاص الذات نحو عالم الاطمئنان بما يتيح الانسجام بين ذات الشاعر، والعالم الموضوعي.

إذا كنـــت قـــد جـــاوزت خمســـين حجـــةً

ولـــم ألـــق خيـــراً فالمنيـــةُ لـــي ســـترُ

ومـــا أتـــوقّى والخطـــوب كثيـــرةٌ

مـــن الـــدهرِ إلا أن يحـــلّ بـــي الهتـــرُ* [١٣]

إنّ البيتين الشعريين يشكلان نافذة للخلاص، فارتباط المنية بـ(ستر) إحالة واضحة للخروج عن دائرة العالم الحسي الى عالم آخر يغيب عن احساس المتلقي.

وهي الدلالة الأساسية على مستوى الجسد وما يرتبط بها من متلازمات مادية تخضع الى فعل (الدهر) بوصفه مكمن الخطوب الكثيرة –على حد تعبيره ثم الدلالة المتكافئة الأخرى المتمثلة بكلمة (الهتر) وهو غياب آخر الى العالم اللاحسي المتمثل بسلطة العقل وجميع من ارتبط به من وعي للعالم الذاتي والموضوعي.

إن كلا الغيابين يعمل (الدهر) كقوى فاعلة يرغب الشاعر بفعلها وسلطتها –هذه المرة– وهي تمثل نسقاً لوعي الشاعر (الجمعي) بسلطة الدهر وارتباطه بفلسفة الخلاص.

يقول امرؤ القيس:

ألـــــم أخبـــــرك أنّ الـــــدهرَ غـــــولٌ

ختـــــورٌ العهـــــد يلـــــتهمٌ الرّجـــــالا[١٤]

فهو نسق يتشكل في نسيج العقل التراثي لشاعر يعيش هذه السلطة وما تفعله، بأسلافه، لكن اللافت للانتباه أن المعري –هنا– جعله نافذةً للخلاص، على خلاف أمرئ القيس الذي رسم صورة الهزيمة للرجال أمام هذا الغول الملتهم (بما توحيه) هذه الكلمة من قوة إلا أنّها قوى مهزومة امام هذا المارد (الدهر) فأمرؤ القيس صوّر الدهر بأنّه لا عهد له ولا ميثاق، لكنّه يمثل القوة المنتصرة بما تمتلك من سلطة حاكمة عن الانسان.

والمعري يقيم علاقة بين الدهر وفناء الانسان ويرسمه في صورة الفارس الذي لا يهزم.

أغـــــارت علـــــيهم خيـــــولُ الزمـــــان

كـــــــأنّ جيـــــــادهمُ لـــــــم تغـــــــزْ

وقـــــــد كـــــــان يركبُهـــــــا طفلهـــــــم

حليـــــــف الرَّضـــــــاع ولـــــــم يتَّغِـــــــرْ*

ومَـــــــنْ يـــــــدفع القـــــــدر الأوَّلـــــــيَّ

إذا فُمُـــــــــــهُ لأكيـــــــــــلٍ فغـــــــــــرِ

لقـــــد غرَّنـــــي أمـــــلٌ فـــــي الحيـــــاة

كـــــأنِّي بمـــــا يفعـــــل الـــــدهرُ غُّـــــر(١٥)

إنّ الدلالة الاساس في الأبيات السابقة تتمحور حول سلطة الدهر التي لا تمنح فرصة للنجاة لكلِّ من تهاجمه، فإذا تسنى لنا عملية الربط بين مفهوم (النفي) (والأثبات) بين (أغارت) (ولم تغر) سننتهي الى حزمة من الدلالات التي تشكل قوة الخاتمة للأبيات المتمثلة بمفهوم الدهر الذي يترك الشاعر أمام أمل في الحياة وهو يُداهم بغارة، والرائع في الدلالات السابقة- أيضاً- هو الفارس الطفل الذي ما زال حليفاً للرضاع وما زالت اسنانه (اللبنية) لم تسقط بعد, وفيها نجح الشاعر في الجمع بين الصورتين: صورة الفارس الطفل وصورة فعل الدهر التي تحولت الى قوة خفية تمارس سلطتها دون عملية انذار

مسبق بما توحيه دلالة (غرٌّ). فالرؤية الفلسفية لمفهوم الدهر وارتباطه بالخلاص سواء كان موتاً ينقل الانسان من عالم الى عالم آخر ام خلاصاً موضوعياً يتحرك فيه الشاعر من لحظة شعورية الى لحظة مغايرة تماماً لسابقتها فهي رؤية عميقة تكشف فلسفة الاغتراب الزماني الذي يعيشه الشاعر الأعمى إغترابا تحوّل الى معادل للهلاك.

والـــــــدهر مفـــــتنٌّ الغوائـــــل مهلـــــكٌ

رَبَّ الحســـــــــامِ وحامـــــــــل المئتـــــــــار[١٦]

لقد جاء في تعريفات: ((الدهر: هو الآن الدائم وهو امتداد للحضرة الإلهية وهو باطن الزمان))[١٧]. وهو بهذا المفهوم يشكل قوة خفية تمارس سلطتها في التحوّل الشعوري للإنسان بما يمتلك من أدوات نقل الانسان مادياً او على مستوى الوعي, انظر الى الدلالة التي تكرّسها ربَّ الحسام وحامل المئتار إنّها دلالة توحي بقوة الأدوات التي يتمتع بها الدهر في الهيمنة على الوجود الانساني.إنّ اكثر معاني الدهر شيوعاً في نصوصه: هو المعنى الشعري، إذ ينظر اليه من حيث هو قوة زمنية فاعلة، فهو يُحزن ويُفرح ويُبكي ويُضحك ويُميت ويُحيي وهو الذي يتصرّف بأمور الحياة ويصعب التأثير عليه من الانسان او الحجارة[١٨]، لذا فإن الدهر (مهلك) ويمارس هذا الفعل بطريقة تغيِب عن وعي الشاعر، فهو لا يُنازل الانسان في ساحة تقع تحت احساس المتلقي كما تُحيل اليه دلالة (مفتنّ الغوائل مهلك) من مفهوم خفي لتلك السلطة يتمحور حول الولع الى درجة (الافتتان) بالهلاك لجميع من يقع تحت سلطته. والمعري عبر هذه الرؤية لسلطة الزمان بجميع تجلياته، يريد ان يمرر رسالة الى المتلقي: انّ ثمة سلطة تحاكم هذا الوجود وتتجلى بالزمان ومحتواه الغائب عن وعينا لكنّها قوة قاهرة تستطيع أن تغيّر وتغيّب جميع من يقع تحت تأثيرها من هذه الموجودات, وهي رؤية فلسفية واضحة اتجاه اهم مفاهيم الكون وأفعاله الخفية.

فلسفة الشهادة والحقيقة:

وقد ذكرنا سابقا أنّ وعي المعري بالزمن يتخطىّ مفهومَ الزمن الفيزيائي والشعوري الى ارتباطه العميق, في تثبيت الأفعال والممارسات الانسانية الكبرى، وخصوصا تلك الافعال والحقائق التي يقدّمها الانسان السامي؛ لتتخذ من حركة الزمن دورةً متجددة ليس باستطاعة السلطة الزمنية محوَها. اذ انّ هذا النوع من الافعال يختزن ديمومته وخلوده من ذاتٍ مفعمة بالخير والجمال وهو ما جعلها تحتل وجودا في صميم الحركة الزمنية.

لقد شكّلت تلك الافعال حقائق كبرى تجاوزت الصراعات الشكلية في السلوك الاجتماعي، الى افعال عززتْ ارتباطها بظواهر الوجود والزمن، فأصبحت شاهدا على الحق والحقيقية.

ومن خلالها يرسم لنا المعريُّ معادلةً رائعة عن فلسفة التضحية في تحقيق مفهوم الشهادة, فالدم حينما يصبح احدى اهم الهبات التي يقدّمها الانسان في تثبيت الوجود الانساني السامي، فإنّه يتحول الى وجود ملتصق بظواهر الكون والزمن، فحينما يراق الدم لأجل الحقيقة تتلقفه سلطة الزمن لتضعَه في صميم معادلتها الكونية.

فإذا كان السلاح المادي ينكسر ويصدأ بسبب سلطة الزمن فإنّ الدم يصبح معادلا لفعل تلك السلطة. والشهادة في فلسفة الإنثروبولوجيا عند الامم غير الاسلامية لها مفهوم مغاير, عن ما هو. عند المسلمين فهي" وسيلة في تحقيق هدف انساني ما ولذا فأنّ البطل (التراجيدي) مصيره الموت المحتوم، بعد ان يقدّم تلك الذات من اجل هدف يتطلع اليه المجتمع، فيتحول الى وسيلة لتحقيق اهداف وتطلعات المجتمع، بيد انّ الشهادة في الاسلام، هي تكاملٌ على صعيد فعل الفرد وتكاملٌ بالفعل الاجتماعي, فهي مسؤولية كبرى في الصعود نحو سماء الانسان الكامل, فعلى مدى التاريخ تبين انّه اذا ما تعرّضت فكرة تسمو بالإنسان. فانّ ابطالها يدافعون عنها بقوة الجهاد والنضال, واذا ما عجزوا عن المقاومة ولم يمتلكوا وسائل الدفاع وضعُفتْ لديهم الامكانات، فإنّهم سيحافظون على ايمانهم وعزتهم عبر معادلة الشهادة. فيتكفل الزمن بحفظ هذا الفعل الانساني؛ فيتحول وجوده في صفحات الافق وفي صميم السلطة الزمنية." [١٩].ليبقى شاهدا كونيا على الحقائق الانسانية الكبرى.

والمعري يرصد لنا شخوصا اختزنت افعالُهم سموَّ النفس الانسانية فأصبحت دماؤهم معادلا للحقيقية تتجدد مع تكرار الظواهر الكونية، تحفظها فيزياء الزمن قبل غيرها, فشخصية الامام علي (ع) وابنه الحسين(ع) جسدتا اسمى الافعال الانسانية السامية وقدمتا الانموذج الأبقى لقيمة الفعل البشري الذي يثبت في الكون ولن تمحوه سلطةُ الزمن او تخضَعه اليها، بل انّ هذه الافعال اصبحت لها سلطة حاكمة. ووجود متجسّد في صفحات الكون وفي كينونة الحركة الزمنية. فالمعري يربط عبر رؤيته الفلسفية الثاقبة بين دماء الامام علي (ع) ودماء الحسين(ع) من جهة وبين الحقيقة الانسانية الباقية من جهة اخرى.

وعلـــى الـــدّهرِ، مـــن دمـــاءِ الشـــهيد يـــ

ـــــــنِ علـــــــيٍّ ونجلـــــــهِ, شـــــــاهدانِ

فهمـــــا فـــــي أواخـــــرِ الليـــــلِ, فجـــــرا

نِ, وفـــــــــــي اولياتِـــــــــــه شـــــــــــفقانِ

ثبتـــا فـــي قميصـــه، ليجـــيءَ الحشْـــ

ـــــرَ, مســـــتعد يـــــا الـــــى الـــــرحمنِ

وجمـــــــالُ الأوانِ عقْـــــــبُ جـــــــدودٍ

كـــــــلُّ جـــــــدٍّ مـــــــنهمُ جمـــــــالُ أوانِ

يـــا ابـــن المســـتعرض الصُّـــفوفِ ببـــدرٍ

ومبيـــــــد الجمـــــــوع مـــــــن غطفـــــــانِ

أحـــــدِ الخمســـــةُ الـــــذين هُـــــمُ الأغـــــ

ـــــراضُ، فـــــي كـــــل منطـــــقٍ والمعـــــاني

والشـــــخوصُ التـــــي خُلِقـــــتْ ضـــــياء

قبـــــــلَ خلْـــــــق المـــــــريخ والميـــــــزانِ

قبـــــل ان تُخلـــــق الخلـــــق او تـــــؤ

مـــــــــر افلاكُهـــــــــنَّ بالـــــــــدوران[٢٠]

انّ مضمون القصيدة يعكس رؤية فلسفية عميقة جسّدتها قراءة الشاعر لأفعال الانسان السامي، والتي بدورها تُحيلنا الى مجموعة من الشفرات الدلالية، ترسمها سلطة الكون والزمن فتتجلى في ثلاثية قيمية تتمحور حولها مدلولات القصيدة المركزية وهي:

١: علاقة الدم بالزمن(الدهر) والارتباط بمعادلة الحق والحقيقة

٢: تحول الدم(الشهادة) الى علامة كونية متجددة.

٣: تأكيد الشاعر على اسرار خلق هؤلاء الشخوص عبر تأكيده على انّهم مصدر الضياء في هذ الوجود

ان المتأمل في الابيات يجد كلمة (شاهدان) تؤكد حقيقية الاهداف التي سقطت من اجلها هذه الدماء الطاهرة. فالصراع الذي حصل، كان بين محورين احدها: يمثل شرّا مطلقا، والآخر :خيرا مطلقا بدليل وقوف (الدهر) بوصفه سلطة تثبّت وتشهد الحقائق الى جانب المعسكر الثاني. انّ ثمة معادلة على مستوى الوسائل والاهداف رُسمت تفاصيلها عبر سيمياء الظواهر والألوان, فاحمرار الدماء الذي ترسمه سيمياء الشفق الاحمر مع بداية الليل ،هو تكريس لرمزية هذا الدم كوسيلة لتحقيق فجر الانسان في الحرية بوصفها هدفا ساميا تبلغه هذه الدماء وتصرخ به في صفحات الزمن والافق، فالدم الاحمر المرتبط بالشفق الاحمر وثبوته في صميم الحركة الزمنية وفي سيمياء الفجر وفي الافق هي: رسالة للإنسان ليكون مستعدا دائما في تحقيق اسمى حرية تتمثل في حق الانسان في العبادة المثلى. إنّ وجه الشبه في الصورة البيانية "الحمرة في لون السماء في انقسامها وانشقاقها الى شفق احمر يُحيل الى اثارة المتلقي ويجدد وعيه برمزية هذا الحق الضائع او المنتظر، انّ له دلالةً عميقة في الألم والمأساة تصل الى حالة مخالفة ما هو مألوف, فتبدل الأزمنة يضاعف الألم ويعمّق الجُرح"[٢١].ويذكّر من يلتزمون طريق ومبدأ هذه الرموز الخالدة، أنّ هنالك دماً سقط لأجل حرية الإنسان في العبادة المثلى وفي سموِّ النفس الإنسانية وسيرها نحو تحقيق الكمال.

في الوجه الأكثر تحديدا من المدلولات والإشارات في القصيدة، يلجأ الشاعر الى تشخيص الرموز التي يرتبط بذاتها وبأفعالها الحق حيث لا مجالا للنقاش والجدل في حقيقتهم وفي كونهم مصدرا لمنطق الحق والخير, وفي ذواتهم تجتمع جميع معاني السمو :

أحـــــدِ الخمســـــة[٢٢] الـــــذينَ هُـــــمُ الأغ

راضُ، فـــــي كـــــلِّ منطـــــقٍ والمعـــــاني[٢٣]

انّ اروع ما تؤكده مدلولات القصيدة هو جعل هؤلاء الخمسة مصدرا للضياء لأنّهم خُلقوا من النور. وهي إشارة لا تخلو من كون منهجهم وطريقهم هو المنهج الواجب اتباعه اذْ لا يعتريه الخطأ وهو كفيلٌ بأنْ يوصلَ الإنسان الى الغاية السامية التي خُلق من أجلها ،فما داموا مصدرا للضياء ومصدرا لمنطق الحياة السليم. فهو يؤكد على اسبقية خلقهم قبل خلق معالم الكون والنجوم والكواكب، الأمر الذي حدا بالزمن المتمثل ب(الدهر) في بادئ القصيدة الى تذكير الإنسانية جمعاء بإنّه شاهدٌ على استمرارية منهجهم وحقهم الذي اضاعته البشرية وهو قيادة الكائن الإنساني نحو السمو والكمال والحقيقة الكبرى.

انّ القارئ ليقف منذهلا من نجاح الشاعر المعري في رسم اشارة الحق عبر دلالة (القميص) الذي سينطق في حضرة الحق الالهي. بأحقية وسلامة المنهج الذي احتضنته أفعال هؤلاء (الخمسة). وحَرَمتْ الإنسانية نفسَها منه. إذْ انّ دلالة القميص لها بُعدٌ كبيرٌ في عقلية الانسان المسلم فمع رمزيته في القرآن الكريم[٢٤] فإنّ له ارتباطا باللون الأحمر الذي يرسم لنا حقا وصراعا

ازليا بين من يتخذه ذريعة لتبرير مواجهة اصحاب الحق وبين من يتبنّاه رمزا لتجديد الحق المضاع والمغيّب والذي تكفّل الزمن والكون بحفظه, ولعلّ هذا الأمر الذي حدا بالمعري في ربطه في كينونة الزمن ومن ثم عمد الى دفع الشك وروح الجدل عن

المتلقي. بأنْ جعله المحور والحدث الأكبر يوم القيامة(ليجيء الحشر مستعديا الى الرحمن), انها صورة رائعة اجاد الشاعر المعري في رسم معالمها بدءا من تأكيده على فلسفة الزمن وعلاقتها بمعادلة الشهادة والحق وانتهاءً في اكتمالها كرؤية فلسفية جمع من خلالها معالم الكون والزمن مع الفعل الإنساني السامي.

نتائج البحث:

وهكذا ظهرت سلطة الزمن في شعر المعري لتمثل رؤية فلسفية كشفت عن جوهر وسر الزمن حينما يمارس سلطته في مواجهة الانسان تارة او في انصافه وتثبيت افعاله تارة اخرى, فشعر المعري اماط اللثام عن حقائق هذا المارد كما هو كائن في وعيه الشعري ؛لذلك تمظهرت صورة الزمن كالآتي:

١ :صورة سلبية تمارس سلطتها في تحطيم الانسان.

٢ :صورة عبثية لا تعبأ بوجود الذات الانسانية.

٣ :صورة ايجابية تُنصف وتثبّت افعال الانسان الكبرى ,وتعمل على تخليدها بوصفها افعالا دخلت في صميم الحركة الجوهرية للزمن.

الهوامش والمصادر:

---

(١) ينظر الظواهرية, مقال بعنوان ((أسس المنهج الظواهري عند أدموند هوسرل)) –فريدة عنوة – مجلة التواصل – جامعة عنابة – الجزائر – ع٤، جبران ١٩٩٩ –ص١٩٧–٢١١.

(٢) يُنظر نقد العقل المحض ، عمانؤيل كانت ,ترجمة موسى وهبة – مركز الانماء القومي – بيروت – لبنان: ١٤١

(٣) الشعر والتأويل، عبد العزيز بومسهولي (قراءة في شعر أدونيس) طبعة افريقيا الشرق – المغرب ١٩٩٨م: ٧

(٤) الزمن والشعر ((مقال منشور على شبكة الانترنت)، محمد بن عياد – تونس: ٤٢.

(٥) المصدر نفسه: ٤٢.

(٦) شرح اللزوميات ,نظم :ابي العلاء ,احمد بن عبدالله بن سليمان المعري ,تحقيق :زينب القوصي, وفاء الاعصر ,د سيدة حامد, مني المدني, اشراف ومراجعة الدكتور حسين نصار,ط٣, ٢٠١٠م: ٩٧/١.

(٧) المصدر نفسه ٩٧/١.

(٨) قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري ، عبد القادر زيدان، دار الوفاء، ط١، ٢٠٠٤م:١٤٧

(٩) شرح اللزوميات ٢٩٣/١.

(١٠) المصدر نفسه ٣٤٢/٢.

(١١) الزمن والشعر: ٤٢.

(١٢) ينظر نقد العقل المحض: ١٤١.

* الهترُ: ذهاب العقل.

(١٣) شرح اللزوميات ٥٨/٢.

(١٤) ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (د.ط، د،ت): ١٥٠

* لم يتَّغرِ: إذا سقطت اسنان الصبي (اللبنية): أتَّغر: أصلها تتغر.

(١٥) شرح اللزوميات ٢٨٤/٢.

(١٦) المصدر نفسه ١٤٥/١.

(١٧) التعريفات، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق عبد المنعم الحنفي، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩١ م : ١١٧.

(١٨) ينظر الدهر في الشعر الاندلسي، دراسة في حركة المعنى، د. لؤي علي خليل، ط١، ابو ظبي، هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية ٢٠١٠ م : ١٠٤.

(١٩) ينظر الشهادة, الشهيد الدكتور علي شريعتي, تقديم ابراهيم دسوقي شتا, دار الامير للثقافة والعلوم الطبعة الاولى- ١٤٢٢هـ٢٠٠٢م :١١٥-١١٦

(٢٠) سقط الزند ,دار بيروت للطباعة والنشر, دار صادر للطباعة والنشر ,بيروت ١٩٥٧م :٩٦.

(٢١)ينظر شعرية الألوان في النص الشعري الجزائري –المعاصر- فترة(1988-2008,) صديقة معمر- مذكرة مكمّلة لنيل درجة الماجستير- كلية الآداب واللغات –جامعة منتوري –قسنطينة- الجزائر2009, ص:85

(٢٢) الخمسة هم: النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين فقد جاء في كتاب فضائل الشيعة بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال : كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إذ أقبل إليه رجل فقال : يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزو جل لإبليس : (أستكبرت أم كنت من العالين) فمن هم يا رسول الله ؟ الذين هم أعلى من الملائكة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أنا وعلي وفاطمة والحسين و الحسين ، كنا في سرادق العرش نسبح الله وتسبح الملائكة بتسبيحنا قبل أن يخلق الله عز وجل آدم بألفي عام. للمزيد : ينظر, بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الاطهار تأليف العلم العلامة الحجة فخر الامة المولى الشيخ محمد باقر المجلسي دار احياء التراث العربي بيروت – لبنان الطبعة الثالثة المصححة ١٤٠٣ هـ. ١٩٨٣ م: ج٢٥/٢

(٢٣) سقط الزند: ٩٦.

(٢٤) قوله تعالى: ((وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب)) يوسف: ١٨ وقوله تعالى:((اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه ابي يأت بصيرا)) يوسف :٩٣